المشرق

الاصطياف في لبنان

للشاب الاديب ميشال افندي الياس سماحه

١ التواصل والعمران

لجبال سويسرة في بلاد اوربّة شهرة عظيمة من حيث بهاء المناظر الطبيعيّة وحسن المناخ وصفاء الجوّ واعتدال الهواء في ايّام الصيف ويقول العارفون بطبائع البلدان ان جبال لبنان تماثلها من عدّة وجوه الّا انها خلوٌ من معدّات الراحة وتسهيلات التواصل التي تبلغ في سويسرة الغاية في الاتقان والترتيب. ولذلك لا عجب اذا قصدها الراغبون وامّها المصطافون من شتات الجهات وابعد البلاد في العالم المعمور فانّ في احتلال ربوعها ترعةً للبال وراحةً من عناء الاعمال وترويضاً للجسم بعد متاعب الاشغال

هذا وليس بمخافٍ ما كان عليه لبنان بالسابق من صعوبة المواصلات فلا تزال آثار طرقه القديمة التي كان يسير عليها المكارون باقيةً الى الآن تحدّثنا عن مشاقّ التجوّل وصعوبة التنقّل في غابر الايّام . وقد حالت دون ذلك موانع كثيرة لا حاجة لذكرها في هذا المقام كانت عثرةً في سبيل التقدّم وتسهيل اعمال المواصلات لعمران البلاد. غير انّ في اواسط القرن الاخير هبّ الاهلون بنشاط عظيم وشمّروا عن ساعد الجدّ والجهد ومهّدوا للتواصل طرقاً كثيرة امتدّت فروعها الى اكثر جهات لبنان ولا تزال شرايينها تتشعّب بين القرى والبلاد حتى هذا اليوم. ثمّ لم توشك شمس ذاك القرن ان توافي

المغيب حتى سمعنا صوت صفير البخار يدوي من فوق اعالي تلك الجبال الشاهقة تردّد صداهُ الكهوف المجاورة والاودية البعيدة الاغوار وعاينّا القطار الحديدي يسير بانتظام قائماً بمهمّة التواصل والنقل احسن قيام مذلّلاً الصعاب ومواصلاً على جناح السرعة بين القرى والبلاد يخترق الاودية والهضاب لا يوقف عزائمهُ ادراك اعالي الصروح والقمم ولا يوهن قواهُ حرّ ولا قرّ ولا يثنيهِ عن المسير لا سقوط الثلوج ولا هبوب الرياح والأعاصير

وقد بادر اللبنانيون الى بناء البيوت الفخيمة وتشييد المنازل الشاهقة ورغب البعض لاسيما منذ بضع سنوات في تنظيم البساتين والجنائن وغرس الاشجار المثمرة واستنبات الزهور والرياحين وتنسيق الاراضي واصلاحها فحوّلوها الى رياض يانعة وغياض يكسو الاخضرارُ ثراهـا بحمائل سندسية وعُدّت في اشهر قرى لبنان المعدّات اللازمة لراحة المصطافين وتوفّرت الاسباب المسهّلة لانشراح وانبساط القاصدين فاضحت كأريكةٍ غنّاء يجد الراغبون تحت سمائها سلاماً وسروراً وارتياحاً وحبوراً . لاسيّما ان اهل تلك القرى قومٌ ودعاء يكرمون الغرباء ويجلّون مقام الكرام . كيف لا وقد نبغ فيهم رجال أعلام سواء بالعلم والفضل والتأليف والتصنيف . وللمرحوم الشيخ نجيب الحداد الشاعر المصري قصيدة مشهورة في وصف لبنان واهلهِ نقتطف منها هذه الابيات :

قفْ في ربى لبنان بين وهاده ... واقرا السلام لاهلهِ وبلاده
جبلٌ بارض الشرق قام وفوقهُ ... قد قامت الاطواد من افراده
انقى نفوساً من بياض ثلوجهِ ... واسخُ جوداً من سيل عهاده
واشدُّ من آساده واشمُّ من ... اطواده واعزُّ من أنداده
قومٌ لهم عمّن سواهم رفعةٌ ... مثل ارتفاع الطود من اجياده
حازوا الفخار قديمهُ وحديثهُ ... والمجد بين طريفهِ وتلاده
شوقي الى تلك الديار واهلها ... شوق المريد الى بلوغ مراده . .

٣ اخلاق المصطافين

نشاهد من اخلاق اكثر القادمين الينا من عالم اوربّة ولعاً شديداً واهتماماً زائداً بما يسمّونهُ بالتمرين العضلي او الرياضة البدنية وتراهم اذا خرجوا للنزهة او قصدوا المصيف في احدى الجهات يحوّلون جلّ اهتمامهم لمثل هذه الاعمال التي من شأنها تنشيط القوى البدنيـة فضلاً عن التسلية في ساعات الفراغ

وقد أُولع البعض في الصيد فيقطعون المراحل الشاسعة غير مبالين بالتعب ولا

متألمين من العناء. ويسودون وملامح السرور بادية على وجوههم وسمات الانشراح والنشاط ظاهرة على ابدانهم. ومثل هؤلاء يجدون في رُبى لبنان وادغاله واوديته ما يقضي رغبتهم

امّا غيرهم وكثير ما هم فانهم يهجرون الديار في فصل القيظ وغايتهم الابتعاد عن كل عمل مزعج شاقّ ينهك القوى ويتعب البدن ليخلدوا الى الراحة والسكون ويأنسوا بالعيشة الاهلية ويرتاحوا الى فراغ البال من كل بلبال. وقد اشتهر بذلك المصطافون في نواحي كاليفرنية فانهم يقصدونها لما يجدون فيها من اسباب الراحة والدعة وهدوّ الفكر. وليت شعري اي بلد يضاهي في ذلك مشارف لبنان فانّ اهلهُ قد عُرفوا بلين طباعهم وسذاجة معاشهم ومن يقصدهُ في الغالب قومٌ يحبُّون العزلة والانفراد ويرتاحون الى السكينة والطمأنينة

هذا قولنا اجمالًا ولمّا كان من الواجب ايفاء الموضوع حقَّهُ من حيث الوصف وكنّا قد عاينّا خطّة ذميمة قد راح يزاولها بعض الافراد من قاصدي لبنان الذين لم يُعرف لهم صفة في مدّة اقامتهم في تلك الربوع سوى الانكباب المتواتر على موائد القمار. وقد تقدَّم لنا كلام مطوَّل عن قُبح هذه العادة وسوء نتائجها على صفحات هذه المجلّة في العدد ١٥ من العام الماضي (المشرق ٧ : ٦٧٠—٦٧٦) حتى اننا سمعنا مرارًا عديدة من افواه كثيرين وخصوصًا من الغرباء المتجوّلين انتقادًا شديدًا على انتشار هذا الداء لاسيما في بعض القرى التي يلقبها البعض بمنتوكارلو الصغير. ومن العجب العجاب انَّ عشّاق هذا الفنّ يدَّعون كونهم يطلبون لبنان للمصيف والراحة والانشراح والنزهة وهو قول باطل يضحكون به من انفسهم كيف لا وهم يألفون تلك العادات السيئة التي لا ينتج عنها في واقعة الحال الّا عكس ما هم يرغبون بتهييج اعصابهم وضنك فكرهم وقلق بالهم

هذا وليس بخافٍ ما يحتويهِ لبنان من المناظر البديعة والمشاهد الطبيعية والمواقف الجميلة ما تقرُّ لهُ عين الناظر ويُسرُّ بمرآه الخاطر فضلًا عن شهرتهِ بعذوبة الماء وطيب الهواء وجودة المناخ. وقد نقل الينا بريد اوربّة في العام الاخير تقرير مندوبي المؤتمر الطبي المنعقد لداء السلّ بناء مستشفى لهذا الداء في جبل لبنان وما ذلك الّا لحسن هوائهِ وجودة مناخه. ولمّا كان من الثابت المشهور انَّ مخالطة اعلّاء هذا الداء العقيم تورث العدوى سرًّا ما رأيناه في السنين الاخيرة من إحجام اصحاب الفنادق وعدول ارباب

المنـازل التي يرسم الايجار قبول المرضى وبالاخص اعلاء هـذا الداء حرصاً منهم على الصحّة العموميّة وصوناً لحسن سمعة محلاتهم. كما وانّنا عاينّـا من اطبّاء الحكومة في بعض القرى اهتماماً شديداً والتفاتاً زائداً للبحث والتفتيش عن الاعلاء وعدم الترخيص لذويهم بالاقامة معهم الّا على انفراد وبمعزل عن القوم

٣ مذكّرة رقيب

انّ عدد الذين يؤمّون بلاد الشام من الغرباء ويقصدون لبنـان من المصطافين لا يزال في ازدياد ومع ما هم عليهِ الاهلون من الاحتياج الى دليلٍ مفيد يُعرّف احوالها وينبئ عن اعمالهـا وتجارتها واصناف مصنوعاتها وانواع محصولاتها وكيفيّة معاملاتها الى غير ذلك لم يهتم الادباء لوضع مؤلف بهذا المعنى ولم نسمع انّ لاحد منهم كتاباً جامعاً للصفات المرغوبة والبينات المطلوبة خصوصاً وانّ البلاد بافتقار شديد الى دليل مطوّل يفيد القوم علماً بما تنبغي لهم معرفتهُ وبالاخصّ ما يحتاج اليهِ القاصد الغريب الذي يدعوهُ المثل العامي « اعمى ولو كان بصيرًا ». وقد عثرنا بالامس بينما كنّا نطالع في مكتبة صديق ودود على مذكّرة وجيزة حديثة وضعها قبل ثماني او عشر سنين الدكتور الافوكاتو احمد بك شافعي المصري عنوانها « هديّة الامام لمن قصد برّ الشام » فرأينا ان نقتطف منها بعض شذرات فيها تفكهة للقرّاء سيّما انّها خُطّت بقلم زائرٍ غريب ورقيب مُصيب. فمن قولهِ في المقدّمة ما هو بحرفهِ: « لاحظنا زيادة اقبال اخواننا المصريين على المصيف بجهات سوريّة وعلى الاخصّ في جهات لبنان كما شاهدنا ذلك في الصيف الماضي فسرّنا هذا الامر مزيد السرور لما فيهِ من الاقتصاد المادّي والفائدة الصحيّة لاخواننا المصريين ومزيد النفع الذي يعود منهُ على اخواننا السوريين

« هذا من الجهة الماديّة واماً من الجهة الادبيّة فقد لاحظنا مع مزيد السرور ايضاً بانّ المصري يرجع من سوريّة وقد نزع منهُ ما كان يتوهّمهُ من وجود نوع فظاظة وغلظة في طباع سكّان سوريّة ويتيقّن بنفسهِ ان تلك الفظاظة والغلظة لا توجد الّا في طباع الطبقة السافلة من السكّان كما هو شأن كل البلاد ويرجع المصري ايضاً من سوريّة وقد ثبت لـهُ امر مهمّ جدًّا وهو استتباب الأمن العام في جبل لبنان وسوريّة شرقاً وغرباً ليلاً ونهاراً

« واماً ما يعود على المصري من المنفعة الصحيّة فهـذا امر نرى من النافل اطالة

الشرح فيه سيما اذا امكن المصري ان ينتقي ويختار النقطة اللازمة والموافقة لمصيفه فلذلك جعلت هذا الامر الموضوع الوحيد لهذه النشرة . ومما جعلني على يقين من اقبال المصريين على المصيف في جهات سوريَّة هو ان نخبة من ارقاء المصريين قد فضَّلوا المصيف في هذا العام في تلك الجهات على جميع جهات اوربَّة واذكر بينهم ف . . . فانهُ لما اصابهُ من الامراض العديدة المتنوعة قصد في الماضي اغلب جهات اوربَّة التماساً للعافية وترويح النفس فلم ينل شيئاً من ذلك وما طاب لهُ العيش الَّا في جهات سوريَّة ولبنان وعاد مثنياً على ما لقيهُ من طيب الهواء وعذوبة الماء وحسن اخلاق ومعاملة سكَّانها . . . . » اه

ثم عدَّد الكاتب بايجاز لشهر بلاد الشام واهمّ قرى لبنان التي زارها وعرَّف ارتفاع مراكزها عن سطح البحر وشكا عند كلامهِ عن مدينة بيروت اشتداد حرارتها في أيام الصيف ووصف دمشق الشام بحسن المتنزّهات وارتأى ان كثرة فاكهتها مجلبة للحُمَّيات . ثم ذكر عين الفيجة وقرية النبك وبعلبك وزحلة ورأى انَّ هواءها كثير التقلُّب ثمَّ شتوره وعين صوفر ويحمدون وعاليه ومكين وسوق الغرب وبكفيا وتشكى من كثرة توتها ثم بيت مري وقد اطنب بوصف موقعها وغاباتها وحسن هوائها وضرب صفحاً عن قلَّة مائها

فيسرّنا ان نرى لمثل هذا الاهتمام في كاتبٍ مصري ونشكر اعتناء هذا الاديب في نشر هذه المذكرة وتدوين هذه الافادات بين مواطنيهِ وان تكن قطرة من قلم ونقطة من بحر مما يجب ذكره عن احوال البلاد . غير ان ذلك لا يبخس صاحبها حق الفضل ومزيد الشكر . وعسى يحتي التأليف من ادباء بلادنا يهتمُّون بتصنيف كتاب في هذا المعنى يجمع لشتات الفوائد والمعلومات فلا شكَّ انهُ يلقى تمام الرواج ومزيد الاقبال

ولمَّا كنَّا قد اتينا على ذكر اشهر قرى لبنان رأينا من العدل واتمامًا للبحث ان لا نبخس حقوق بعض القرى التي سكت الكاتب عن ذكرها وقد اشتهرت في السنين الاخيرة أمَّها كثيرون من الراغبين والمصطافين لحسن هوائها وجودة مائها كعين زحلتا وهي مع شلَّالها من احسن مناظر الطبيعة ثم شملان وعيناب وبرمانا وتحوي هذه انظم المطاعم واتقن الفنادق ناهيك عن فخامة موقعها وتوسط واعتدال مركزها ثمَّ قرية الحنشارة وهي مشهورة بنسيمها العليل ومائها العذب وتكتنفها غابات من الصنوبر

التي لا ينفكّ نسيم رطيب لطيف يلاعب اغصان اشجارها فيسمع الجالس تحت ظليلها صوتًا رخيمًا ينعش فؤاد العليل الباكي. ثم ظهور مرحاتا (الشوير) وهي على مرتفع يقارب علوّهُ ١٢٠٠ متر فوق سطح البحر يشرف على قرى الشوف والمتن وكسروان ويطلّ على البحر فيماين منهُ الناظر مشهدًا جميلًا بديعًا. وهذه الجهة لم يقصدها المصطافون الّا في السنين الاخيرة ولم يكن هناك بناء للاقامة ولا فنادق لنزول القاصدين فكان المصطافون يضربون اوتاد خيامهم تحت اشجار الصنوبر وبين دوالي العنب المنتشرة. والبعض كانوا يسرّون بنصب الخيام من اغصان الاشجار. وقد دعا ازدياد الاقبال في العام الاخير على تلك الجهة الى تنشيط الاكثرين من اصحاب الاملاك الى بناء الفنادق وإعداد المطاعم الى غير ذلك من وسائط التسهيل والراحة. وربّما اعود بمقال آخر الى وصف محاسن الاقامة بهذه الجهة معما يجاورها من القرى فقد قصدتها في الصيف الماضي مع من رغّبني بحسن هوائها وجودة مائها فألفنا هنالك على اتمّ هناء واوفر سرور وعدت ولسان حالي يقول:

شوقي الى تلك الربوع واهلها شوق المريد الى بلوغ مراده

الحب الصادق

لحضرة مكاتبنا الفاضل الاب انستاس الكرمليّ

حدّثنا الاب مُرّيسن من المرسلين الاسكوسيين الانكليز الراجع الى بطركية اللاتين الاورشليميّة قال: كنتُ في سنة ١٦٠٠ في بلاد الصين بمنزلة كاهن خادم للحملة الصينيّة في ايّام خروج البكر وكنت نزلت قرية اسمها تنكو (Tongou) بين مدينة شَنْغِيقَنْكْ (Changhiquing) وزاكو (Zaku) فلمّا جُنّ الليل اذا بطارق يقرع باب غرفتي فقلتُ لهُ:

من انت؟

قال: اني رجل مسيحي اتيتك لالتمس منك ان تطوّقني منّة فتكون بمنزلة القلادة حول عنقي على مدى الدهر